عمر بن عبدالعزيز ناقداً

علي كمال الدين الفهادي
- العراق -

نظر الخلفاء الأمويون في أمر الشعر رواية واستنشاداً ونقداً ، وكانوا يثيبون أويحرمون ، ولا سيما معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان ، فقد ولي كل منهما الخلافة قرابة عشرين سنة ، استقرت بهما الحال فازدهرت المجالس الأدبية في عهديهما ، وكثيراً ما مزجت تلك المجالس الأدب بالسياسة والخلافة ، فقامت الأحكام والمفاضلات بين الشعراء على ضوئها أولخدمتها ، وكان للمعارضة ونشاطها الدور في إذكاء النشاط النقدي فيها حيث تقوم المنافسة على زعامة الرواية والأدب قيامها على الزعامة والخلافة.

أما عهد عمر بن عبدالعزيز فكان سنتين وشهراً خفتت فيه حدة المعارضة ، ولم يكن الخليفة يعبأ بشعر المديح وعقد مجالس للشعر والشعراء ، إذ اهتم بأمر الرعية وبتنظيم بيت المال ينفق منه وما يرد إليه ، وأجهد نفسه في إعادة التوازن الذي اختل بين الدنيا والآخرة فأكثر من تزهيد الناس ونفسه أولاً بالدنيا والترغيب بالآخرة ، وحث الناس على القناعة بما في أيديهم ، وشرع أولاً بأقاربه وأهل بيته فأعاد أموالاً طائلة منهم إلى بيت المال سماها (المظالم) ، وشرح لعمته فاطمة بنت مروان نهجه الاقتصادي بقوله « إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ، لم يبعثه عذاباً ،إلى الناس كافة ، ثم اختار له ماعنده فقبضه إليه ، وترك لهم نهراً شربهم فيه سواء ، ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله ، ثم ولي عمر فعمل على عمل صاحبه ، فلما ولي عثمان اشتق من ذلك النهر نهراً ، ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار ، ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبدالملك والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إليّ وقد يبس النهر الأعظم ، ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ماكان عليه » (١)

ومن هذه النظرة إلى مال المسلمين انصرف عن المديح وشعرائه ، فحجب نفسه وعطاءه عنهم حتى قال مسلمة بن عبد الملك لوفود الشعراء « أما علمتم أن إمامكم لا يعطي الشعراء شيئاً » (٢) حفاظاً على النهر الأعظم الذي صرح للشعراء بأنه لن ينفق منه إلا على وفق قوله تعالى « **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة**

تغنى عمر بن عبد العزيز بالغزل العفيف الذي يشكو لواعج القلب من الشوق والبعد ويحن إلى أيام الصبا والشباب

قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » ولا عجب في هذه السياسة تجاه شعراء المديح وحجب نفسه عنهم (٢) فهي سياسة جده الفاروق بل هي سياسة الراشدين جميعاً (٣) ، وعلى نحو ما أعاد المظالم إلى بيت المال ، حاول إعادة الشعر والشعراء إلى نهر العقيدة ليردوا عذبه فيصدروا عنه بقيم تنسجم مع ما أحدثه الإسلام في نفسه ونفوس المؤمنين ليعيد الموازنة بين الدنيا والآخرة قال لدُكَين الراجز « إن نفسي لم تنل شيئاً قط إلا تاقت لما هو فوقه ، وقد نلت غاية الدنيا فنفسي تتوق إلى الآخرة » (١)

ولقد أدرك الشعراء ذلك منه ، فقال كثيّر عزة بعد أن حجب من الدخول عليه : لو أتيت المسجد يوم الجمعة فتحفظت من كلام عمر شيئاً، فسمعت خطبة له يقول فيها :« لكل سفر زاد لا محالة ، فتزودوا من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فعمل طلباً لهذا وخوفاً من هذا، لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، و تنقادوا لعدوكم ، واعلموا أنه إنما يطمئن بالدنيا من وثق بالنجاة من عذاب الله في الآخرة ، فأما من لا يداوي جرحاً إلاّ أصابه جرحُ من ناحية أُخرى فكيف يطمئن بالدنيا ! أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى نفسي عنه فتخسر صفقتي ، وتبدو عيلتي، وتظهر مسكنتي يوم لا ينفع فيه إلاّ الحق والصدق »(١) . وأدرك بعد سماعه الخطبة أن ما أعده من شعر على غرار ما كان يعده للخلفاء السابقين لن يجد صاغية من الخليفة الزاهد ، فقال للأحوص الأنصاري ونصيب بن

رباح :« جددوا لعمر من الشعر غير ما أعددناه ، فليس الرجل بدنيوي » (١) وقد صاغ الشاعران ما يتناسب ومضمون هذه الخطبة وشخصيتها المؤمنة الزاهدة (٤).

لقد أحدث هذا التوجيه بداية رائدة في الشعر الأموي لم تلبث أن قتلت على نحو ماقُتل شهيد إعادة الحياة إلى النهر العظيم ، فالسلطان سوق فما نفق عنده حمل إليه(٥) ولما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن(٥) . فشخصية عمر وثقافته وخطبته وتوجيهاته للرعية ، ومنهم الشعراء جعلت الشعر يحنو في مضامينه ومعانيه نحو رؤية إسلامية للإنسان ودوره في الحياتين الدنيا والآخرة .

لقد كان لعمر بن عبد العزيز اهتمام بسماع الأدب وروايته ، فقد روي عنه قوله :« ما كلمني رجل من بني أسد إلاّ تمنيت أن يمد له في حجته حتى يكثر كلامه فأسمعه » (٦) فا ختصهم بالفصاحة والبلاغة لحسن منطقهم وأدائهم الحجة أداء فنياً جميلاً . وعندما أحسن رجل في طلب حاجة بين يديه ، وتأتى لها بكلام وجيز ومنطق حسن أثار إعجابه الإيجاز وحسن المنطق ، فقال « هذا والله السحر الحلال »(٦) ، وكان حريصاً على أدب يلتزم الإسلام ويقف إلى جانب الحق فيما يرويه ويحفظه من أشعار ، فقد عُرف عنه كثرة إنشاده شعر عبد الله بن عبد الأعلى القرشي الذي يقول فيه (٧)

تجهزي بجهاز تبلغين به
يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثاً
وسابقي بغتة الآجال وانكمشي
قبل اللزام فلا منجى ولا غوثا

ولا تكدي لمن يبقى وتفتقري
إن الردى وارثُ الباقي وماورثا
واخشي حوادث صرف الدهر في مهل
واستيقني ، لا تكوني كالذي انتجثا
عن مدية كان فيها قطعُ مدّته
فوافق الحرث موفوراً كما حرثا
لا تأمني فجع دهرٍ مورطٍ خبلٍ
قد استوى عنده ما طاب أوخبثا
يا رب ذي أمل فيه على وجل
أضحى به آمناً أمسى وقد جئثا
من كان حين تصيب الشمس جبهته
أو الغبار يخاف الشَّيْنَ والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته
فسوف يسكن يوماً راغماً جدثا
في قعر موحشةٍ غبراء مقفرة
يطيل تحت الثرى في رمسها اللبثا

فكثرة إنشاده القصيدة ، يدل على التزامه شعراً يهوّن من شأن الدنيا ، ويعزز مكانة الآخرة في نفس المتلقي ، ويذكره بالموت في خطاب يتجه إلى النفس أولاً ، ومن خلالها إلى الناس والرعية ثانياً .

ومثل ذلك إنشاده ماينهى الفؤاد عن الانقياد للصبا والشباب ، ولا سيما بعد أن شابت مفارق المرء(٧) ، فهو بذلك يرجح الصنفين الأولين من أصناف الشعر الأربعة التي ذكرها ابن رشيق ويلزم الشعراء بها «فشعر هو خير كلّه ، وذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة ، والمثل العائد على من تمثل به الخير ، وما أشبه ذلك ، وشعر هو ظرف كله ، وذلك القول في الأوصاف والنعوت والتشبيه وما يفتن به من المعاني والآداب ، وشعر يتكسب به ، وذلك بأن يحمل إلى كل سوق ماينفق فيها ، ويخاطب كل إنسان من حيث هو ، ويأتي إليه من جهة فهمه (٨) ، وهذا الالتزام يتفق مع وظيفة الأدب الأساسية التي يرى د. محمد مصطفى هدارة أنها: نقل التجارب الإنسانية والتعبير عنها تعبيراً مؤثراً ومتأثراً بأوضاع المجتمع ليكون الأدب إنسانياً، وليس مجرد أدب تطبيقي كما أسماه كرومبي(٩).

وعلى الرغم من أن أخبار عمر بن عبدالعزيز تشير إلى تغنّيه بشعر الغزل إلاّ

كانت شخصيته الثقافية كفيلة بتغيير مسار الشعر الأموي لو كتب له البقاء في الخلافة مدة أطول

أنه غزل عفيف يشكو لواعج القلب من الشوق والبعد ، ويحن إلى أيام الصبا والشباب(١٠) . ومن تغنيه بهذه الأبيات قال الجاحظ : «ولانرى بالغناء بأساً إذا كان أصله شعراً مكسواً نغماً ... فما كان منه صدقاً فحسن ، وما كان منه كذباً فقبيح » (١١) ، وشبيه بهذا التغني إنشاده قول قيس بن الخطيم (١٢) :

بين شكول النساء خلقتها
قصد فلا جبلة ولا قضف
تغترف الطرف وهي لا هيةٌ
كأنما شفَّ وجهها نُزفُ
تنام عن كبر شأنها فإذا
قامت رويداً تكاد تنغرف

وقوله فيه «قائل هذا الشعر أنسب الناس »(١٣) ، فلقد وقف من شعراء الغزل الصريح موقف مؤاخذ محاسب موجه من أمثال الأحوص الأنصاري وعمر بن أبي ربيعة ونصيب بن رباح ولا سيما في ذلك الشعر الذي يترك أثراً اجتماعياً بسبب من ذكر المرأة صراحة باسمها أو كنيتها . فقد كان الأحوص «ينسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة ، ويتغنى بشعره معبد ومالك ، ويشيع ذلك في الناس ، فنفاه سليمان بن عبدالملك إلى دهْلَكَ. فلما ولي عمر بن عبدالعزيز كتب إليه يستأذنه في القدوم ويمدحه فأبى أن يأذن له ، ثم سأله رجال من الأنصار أن يرده إلى المدينة فقال لهم عمر : فمن الذي يقول : (١٤) :

فما هو إلاّ أن أراها فجاءة
فأبهت حتى ما أكاد أجيب

قالوا : الأحوص . قال : فمن الذي يقول (١٤) :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر
بأبياتكم مادرت حيث أدور
وما كنت زوّاراً ولكن ذا الهوى
إذا لم يزر لا بدَّ أن سيزور

قالوا : الأحوص . قال : فمن الذي يقول (١٤) :

كأن لبنى صبيرُ غادية
أو دمية زيّنت بها البيع

الله بيني وبين قيّمها
يفر عني بها وأتّبع

قالوا : الأحوص ، قال : بل الله بين قيّمها وبينه . قال : فمن الذي يقول (١٥) :

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا
سريرة ودٍّ يوم تبلى السرائرُ

قالوا : الأحوص ، قال : إنّ الفاسق عنها يومئذ لمشغول ، والله لا أردّه ما كان لي سلطان (١٦) فنقد الخليفة يأتي من حرصه على تماسك العلاقات الاجتماعية التي يضعفها ذكر الشاعر نساء جيرانه صراحة على نحو ذكر أم جعفر ، أو الاستهانة بالغيرة الإسلامية المتمثلة بغيرة الرجل على بيته ، والتي يحاول خرقها الأحوص ويدعو الله - حاشاه - ليحول بينه وبين أصحاب هذه الغيرة ليحقق لنفسه مأرباً خبيثاً.

ويحرص الخليفة الناقد أيضاً على حرمة يوم القيامة وزمن الحساب الذي ذكره الله سبحانه بقوله : «**يوم تُبلى السرائر ، فماله من قوة ولا ناصر**» ، وقوله : «**يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**» إذ لمح في مبالغة الشاعر ما يتنافى وعظمة ذلك اليوم الرهيب وأنكر عليه استثماره الكناية القرآنية عن يوم القيامة (تبلى السرائر) إزاء خلود حبّه وهواه ، وقد أنكر على عمر بن أبي ربيعة تشبيبه بالنساء في موسم الحج ، فكتب إلى عامله على المدينة : «قد عرفت عمر والأحوص بالخبث والشر ، فإذا أتاك كتابي هذا فاشددهما واحملهما إلي ، فلما أتاه الكتاب حملهما إليه . فأقبل على عمر فقال له هيه (١٧) :

فلم أر كالتجمير منظر ناظر
ولا كليالي الحج أفلتن ذا هوى
ومن مالىء عينيه من شيء غيره
إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون ! أما والله لو اهتممت بأمر حجك لم تنظر إلى شيء غيرك!.(١٨)

ليس الأمر في نظر الخليفة مرهوناً بالشعر ومضمونه بقدر ماهو مرهون بزمنه ومناسبته ، إذ يعز على الخليفة المسؤول عن موسم الحج ومناسكه التي هي من شعائر الله، ومما يثير الخشوع في أنفس المؤمنين أن يؤول إلى ميدان الهوى والغرام والنظر إلى محارم الآخرين.

وإذا كان عمر بن عبدالعزيز قد أخذ الشاعر غيرة على نساء المسلمين عامة ، فقد أخذه من قبل عبدالملك بن مروان غيرة على نساء قريش خاصة وتاب الشاعر على يديه من قبل (١٨) . ويتلخص موقف الخليفة من هذا الشعر بالغيرة على استثمار الآيات القرآنية في يوم القيامة في شعر الغزل ، واستغلال مناسك الحج لبث الهوى ولواعج الغرام أو التشهير بالنساء بذكرهن صراحة بدليل قوله لنصيب مؤاخذاً : «إيه يا أسودإ أنت الذي تشهر النساء بنسيبك» (١٨)

وإذا كان الخليفة الناقد قد حجب الشعراء من الدخول عليه

فقد سمح لنصيب بإنشاد يقول فيه (١٩):

الحمد لله أما بعد يا عمر

فقد أتتنا بك الحاجات والقدر

فأنت رأس قريش وابن سيدها

والرأس فيه يكون السمع والبصر

فأمر له بحلية سيفه(٢٠) . فقد أمّل الشاعر الخليفة بأن يسمعه شعراً في دائرة الحمد لله والثناء عليه ، ولا يدور في المديح والثناء على الخليفة الذي أوقف طوفان شعر المديح في العصر الأموي.

وقد سمح لعويف القوافي أن يحاوره بشعره لما فيه من معنى إسلامي إذ ابتدره الشاعر قائلاً (٢١) :

أجبني أبا حفص !.. لقيتَ محمداً

على حوضه مستبشراً بدعاكا

فقال عمر : أقول لبيك وسعديك ! فقال :

وأنت امرؤ كلتا يديك طليقة

شمالك خير من يمين سواكا

علام حجابي زادك الله رفعة

وفضلاً وماذا للحجاب دعاكا

فقال : ليس ذاك إلاّ لخير ! وأمر له بصلة . إن صلة عمر لعويف تعد هاهنا حكماً نقدياً بني على قبول وتأييد شعر إسلامي يشير إلى شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وورود المؤمنين عليه حوض الكوثر ، والدعاء للخليفة بالرفعة والفضل من الله سبحانه ، ودعوته إلى ترك الحجاب عن المسلمين ، فضلاً عن إعجابه بنباهة مبادرة الشاعر وسرعة بديهته وفطنته في التلطف لخرق الحجاب.

وكان يشترط على الشعراء عندما يأذن لهم بإنشاده ألاّ يقولوا إلاّ حقاً ، من مثل قوله لكثير عزة والأحوص :« قل ولاتقل إلاّ حقاً فإن الله سائلك » ، وعند فراغهما من الإنشاد قوله لكل منهما :« إن الله سائلك عن كل ماقلت »(١) ، وعندما استأذن جرير في الإنشاد قال له : « مالي وللشعر يا جرير ، إني لفي شغل عنه ، قال : يا أمير المؤمنين إنها

دعا عمر بن عبدالعزيز إلى الصدق في التصوير الفني للشعر ونقده

ثقافته وخطبه وتوجيهاته للشعراء جعلت الشعر ينحو في مضامينه نحو رؤية إسلامية

رسالة من أهل الحجاز ، قال : فهاتها إذن . فقال : (٢٢)

كم من ضرير - أمير المؤمنين - لدى

أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر

أصابت السنة الشهباء ما ملكت

يمينه فحناه الجهد والكبر

ومن قطيع الحشا عاشت مخبأة

ماكانت الشمس تلقاها ولا القمر

لما اجتلتها صروف الدهر كارهة

قامت تنادي بأعلى الصوت ! يا عمر!

لقد عرف جرير أثر شعر المديح المؤثر في نفوس الخلفاء تأثيراً كبيراً ، فرأى بعد أن عرف عمر بن عبدالعزيز أنه يختلف عنهم بنفس محصنة من تأثير المديح وما ينفثه فيها من كبر قد يدفع بها إلى الغرور والعجب ، فتنفق من أموال المسلمين إنفاقاً في غير وجهه ، فأشار إلى قوة الخليفة المبنية على إقامة تماسك الجماعة وعدم الخضوع لتأثير شعر المديح فقال (٢٣) :

تركت لكم بالشام حبل جماعة

أمين القوى مستحصد العقد باقيا

وجدت رقى الشيطان لا تستفزه

وقد كان شيطاني من الجن راقيا

فإذ يسمع رسالة أهل الحجاز شعراً من جرير يحمل الشعر مهمة أداء الشكاوى ، إذ الشعر أقدر على تأدية الرسائل معبرة عن مشاعر الناس ونقلها إلى دار الخلافة.

ومن هذه المهمة التي رآها مناسبة للشعر أعجب برسالة شعرية لكعب الأشقري يقول فيها ناقداً سياسة الدولة في جمع الزكاة(٢٤) :

إن كنت تحفظ مايليك فإنما

عمال أرضك بالبلاد ذئاب

لن يستجيبوا للذي تدعو له

حتى تُجلَّل بالسيوف رقاب

بأكف منصلتين أهل بصائر

في وقعهن مزاجر وعقاب

هلا قريش ذكّرت بثغورها
حزم وأحـــلام هناك رغاب
لولا قريش نصرها ودفاعها
ألفيت منقطعاً بي الأسباب

فعمر يقبل الشعر عندما يكون رسالة لرفع حاجة أو تقديم شكوى أو نقد سياسة الدولة ، أما عندما يكون مديح تكسب ، أو هجاء يعرّض أعراض المسلمين لألسنة الشعراء فإنه يرفضه ، وقد يشتري أعراض المسلمين من الشاعر على نحو مافعل مع الفرزدق إذ دفع له أربعة آلاف درهم على ألاّ يتعرض لأهل المدينة بمدح أو هجاء ، ولمّا خالف ذلك أنذره بالتنكيل به إن عاد ثانية (٢٥).

ويعرب عمر عن كراهيته للمديح بصباحة الوجه وحسنه والتطيب بالطيب ويراه منطقاً يتعارض مع الخلق الإسلامي ورصانته ، فعندما دخل عليه خالد بن عبدالله القسري مهنئاً بقوله من تكن الخلافة قد زانته فأنت قد زنتها ، ومن شرّفته فأنت قد شرّفتها ، وأنت كما قال الشاعر (٢٦) :

وتزيدين أطيب الطيب طيباً
أن تمسّيه أين مثلك أينا
وإذا الدرُّ زان حسن وجوه
كان للدرِّ حسن وجهك زينا

فقال عمر بن عبدالعزيز: « أُعطي صاحبكم مقولاً ولم يعط معقولاً » (٢٧) ، فاعتراضه مبني على ذوق عربي إسلامي صحيح « فأفضل مديح الرجال ما قصد به الفضائل النفسية الخاصة لا بما هو عرضي فيه ، وما أتى من المدح على خلاف ذلك كان معيباً (٢٨) وأكثر ما تعتد به العرب في المدح الأفعال التي تتجشم الأنفس فيها الضرر لنفع غيرها »(٢٩) ، فضلاً عن أن الشعر قيل غزلاً بامرأة وليس مدحاً لرجل ، وشتان بين مايمدح به الرجال وما يثنى به على النساء . وقد رفض عبدالملك بن مروان من قبل مديح عبيد الله بن قيس الرقيات المبني على التاج ووضاءة الجبين (٣٠) ، وكان عمر يرى أن الإسلام يفتح للشاعر آفاقاً كثيرة للقول ويوسع له دائرة المعاني ، ويبدو ذلك واضحاً من محاورته لسليمان بن عبدالملك إذ سأله:أجرير أشعر أم الأخطل ؟ فقال : « إن الأخطل ضيّق عليه كفره القول ، وإن جريراً وسع عليه إسلامه قوله » (٣١) ، وربما تكون هذه المفاضلة بين شاعرين فريدة من نوعها في حياته النقدية بعد مفاضلته بين جرير والفرزدق ، إذ فضّل جريراً على الفرزدق لعفة بطنه وفرجه وليس لأفضلية شعره على الفرزدق (٣٢) ، بل إننا لنجد مفاضلة أخرى بين موضوعي الرثاء والتشوّق إلى الأحبة وديارهم ، فقد أراد نصيب أن ينشده مراثي أبيه عبدالعزيز ، فقال عمر : « لاتفعل فتحزنني ، ولكن أنشدني قولك : (قفا أخويّ) فإن شيطانك كان لك فيها ناصحاً حين لقنك إياها » فأنشده (٣٣) :

قفا أخويَّ إن الدار ليست
كما كانت بعهدكما تكون
ليالي تعلمان وآل ليلى
قطين الدار فاحتمل القطين
فعوجا فانظرا أتبين عمّا
سألناها به أم لا تبين
فظلا واقفين وظل دمعي
على خدّي تجود به الجفون
فلولا إذ رأيت اليأس منها
بدا إن كدت ترشقك العيون
برحت فلم يلمك الناس فيها
ولم تغلق كما غلق الرهين

وتقفنا هنا مقولته « إن شيطانك كان لك فيها ناصحاً حين لقنك إياها » لأن النصح فيها كان لعفافها ورقة ألفاظها ، وتناسق إيقاعها القائم على أكثر من تكرار يمهد لقوافيها ، وانطوائها على عاطفة هادئة منسابة بحب ممزوج بحزن شفاف.

وبعد فعمر بن عبدالعزيز يعد من النقاد في توجيهه الشعر والشعراء ، ووقفه طوفان شعر المديح بحجب نفسه وعطائه عنهم ، وتغييره وجه هذا الشعر نحو الآخرة والزهد في الدنيا ، والمفاضلة بين الشعراء ، والنهي عن ذكر النساء والتشبيب بهن صراحة في الغزل ، ومنع الهجاء ،